النظرية الانقسامية:

النظرية الانقسامية (أو نظرية الانقسام الاجتماعي) هي مفهوم يستخدم في علم الاجتماع وعلم السياسة لتحليل كيفية انقسام المجتمعات بناءً على خطوط اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية أو عرقية أو لغوية. تركّز هذه النظرية على فهم تأثير هذه الانقسامات على الاستقرار الاجتماعي والسياسي، وعلى كيفية إدارة هذه التوترات لضمان التعايش أو تقليل النزاعات.

اهتم كثير من الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بهذا الاتجاه الذي ظهر ضمن علم الاجتماع الفرنسي لكنه لم يأخذ أبعادا واهتماما إلا على يد الاتجاه الأنجلوسكسوني الذي يتزعمه إيفانز برتشارد وأرنست غلنر وغيرهما الذين قاموا برسم المعالم النهائية لهذه النظرية وأخرجوا أفكار المدرسة الفرنسية من المحلية إلى العالمية ومن التنظيرات الإيديولوجية إلى توسيع مجال البحث الميداني خصوصا في المرحلة الممتدة بين الخمسينات والسبعينات. ورغم أن بعض الكتاب يعتبر الأطروحات الاستعمارية تندرج ضمن الاطروحات الأنثروبولوجية إلا أن فريقا آخر يرى أن اختلاف السياقات والمنطلقات العامة وجمع الأنثروبولوجيا الانقسامية للاتجاهين البنيوي والوظيفي، حيث حاولت تحليل الآليات الداخلية والظاهرة للمجتمعات مع اتجاه نحو فرز الظواهر وتصنيفها، كما استعملت الرسومات البيانية والتخطيطية والإحصاء والمقارنات، كل ذلك يجعلها تتميز عن الاتجاه الاستعماري بما صاغته من نماذج نظرية ومفاهيم متميزة.

يعود مصطلح الانقسامية Segmentarité حسب بول باسكون(1) إلى علم الحيوانات Zoologie حيث توجد حيوانات تنقسم على نفسها إلى شطرين منفصلين قادرين على الحياة وقاس ذلك على المجتمعات التي تنشطر بصفة لا متناهية إلى أجزاء متشابهة يعاد إنتاجها باستمرار وبتكرار، وهذه الأجزاء قادرة على الانصهار والاتحاد لتكوين مجموعات أكبر تتنافس على أهداف معينة، تتميز بالتوازن وعدم تمركز السلطة، وهذا لا تستطيعه الحيوانات الانقسامية، تضاف لهذه الملامح، الهامشية مقابل المركزية والقدرة على المحافظة على الذات في مواجهة الأنداد، كما تقوم البنية الانقسامية على أهمية النسب (النسب القبلي).

❖ مبادئ النظرية الانقسامية:

وجود خطوط انقسام واضحة: تعتمد النظرية على وجود مجموعات اجتماعية أو ثقافية متميزة داخل المجتمع، مثل الانقسامات الطائفية، العرقية، أو الطبقية.

التفاعل بين المجموعات: تركز النظرية على العلاقة بين هذه المجموعات، سواء كانت تعاونية أو تنافسية أو عدائية.

إدارة الانقسام: تطرح النظرية تساؤلات حول كيفية إدارة هذه الانقسامات بطرق سلمية ومستدامة، مثل عبر سياسات التعددية الثقافية أو الفيدرالية أو المساواة.

---

[1]- د.سالم لبيض، مرجع سابق، ص 70.

❖ جذور النظرية الانقسامية وروادها:

إذا كان إميل دوركايم هو أول من استعمل مفهوم الانقسامية في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" عندما تكلم على التضامن الآلي والعضوي والذي سنفصل فيه لاحقا، إلا أن الأعمال الأولى كانت لباحثين سابقين عليه، استمد منهم أفكاره وحرّي بنا أن نتطرق لهذه الأعمال الأولى الممهدة لظهور الانقسامية كما وردت على لسان أصحابها، وسنبدأ بأول عمل مرجعي وهو كتاب "القبائل والأعراف القبائلية" La Kabylie et les coutumes kabyles لمؤلفيه الثنائي: هانوتو، ولوترنو الصادر عام 1872.

ا -هانوتو.أ.و.أ.لوترنو : كان هانوتو ضابطا برتبة عقيد في كتيبة ذراع الميزان بمنطقة القبائل، قام بدراسة التنظيم الاجتماعي والسياسي لهاته المنطقة وكان لحاجة إلى الاستعانة بشخص ذو ثقافة قانونية وتوفر له هذا الشرط في شخص لوترنو الذي سخرته الادارة العسكرية لمساعدة هانوتو في بحثه الحقلي. يعتبر الكاتبان التنظيم السياسي والإداري للشعب القبائلي من أكثر الأنظمة ديمقراطية حيث الشعب هو الكل في الكل، وهذه الديمقراطية هي نتيجة طبيعة لروح الاجتماع والتضامن الغريزي التي تنظم هذا المجتمع من أبسط مصلحة فردية إلى العلاقات العائلية داخل القرية أو العرش وبفضل هذه الروح حافظ القبائلي على حريته واستقلاله انطلاقا من وعيه لحقوقه وواجباته اتجاه مواطنيه. هذا الشعور بالمساواة والديمقراطية ولّد أيضا منافسات فردية عندما تشعر بالغيرة والعواطف السيئة مما أدى إلى الفتنة وتقسيم القرى من قبل الأحزاب مما جعل كل قرية عبارة عن جمهورية صغيرة داخل كنفدراليات ممتدة، كما ساهمت روح المساواة والاستقلالية في قيام تجزئة دون حدود ومنعت بذلك تكوّن جنسية متجانسة ولعل ذلك ربما يفسر سقوط الممالك البربرية وسيطرة الشعوب الغازية على شمال أفريقيا. القرية (ثادار) هي جسم التنظيم السياسي والإداري، تقوم بتعيين رؤسائها، تضع أو تعدل قوانينها وتسير نفسها وحياتها الخاصة بكل استقلالية.

تجمع قريتين أو أكثر في علاقات سياسية أو إدارية يشكل عرشا أو قبيلة بالمصطلح العربي وتجمع عدة عروش يشكل "تاقبلت" وهو عبارة عن رابطة أو كنفدرالية نادرا ما تتوحد إلا في حالة الدفاع أو الاعتداء المشترك لينتهي التحالف بانتهاء أسبابه.

عندما تحس عدة مداشر متجاورة بضعفها ببقائها منعزلة تتوحد داخل إدارة مشتركة تسمى توفيق أو وفاق، أو عقد ويشكل قرية قد تنضم للقبيلة ومن أمثلته "توفيق تاكا" الذي كان يجمع "مداشر أيت سي أحمد، لمخردة، تاكاأفنوني.

تتفرع القرية إلى عدة أقسام تسمى "خروبة" تتشكل من عدة عائلات من نفس الأصل على العموم وقد تجاورها عائلات غريبة عن البلد أو سكان ليس لهم أقرباء، يسير القرية "التاجماعت" أو الجماعة أو الجمعية العامة للمواطنين، قراراتها سيدة وتنفذها بنفسها.

تتشكل القبيلة من تجمع عدة قرى ملتزمة بحقوق وواجبات متبادلة فهم متضامنون عند العدوان أو الدفاع أو في حروب الصف فتتجمع عند أول نداء من القبيلة وهذه الروح القتالية هي التي حافظت لمدة طويلة على توافقها لأن العدو المشترك واحد، وإذا حدثت نزاعات داخلية يبحث عن نزاعات خارجية مع قبائل أخرى ليعود التجانس الذي يعتبر كمعجزة بين أشخاص مستعدين لذبح بعضهم البعض، ويدخل ضمن المسائل التي توحد المداشر ما يتعلق بحرمة القبائلي والتي عادة

ما تؤدي إلى الحرب كقتل أفراد من القبيلة على يد غرباء أو لاجئين، اختطاف نساء من أزواجهن أو أقاربهن، هروب نساء من البيت الزوجي ولجوئهن لقبيلة غريبة.

نتيجة للحروب الطويلة الدامية قد تحس قبيلة بأنها ضعيفة في مواجهة خصومها فتلجأ إلى التجزؤ أو التقطع والانضمام إلى قبيلة أخرى وهكذا تلاشت من كنفدرالية آيت تراتن قبيلة اسماديان التي كانت تجمع مداشر تيزي راشد- أغوني- أوجلبان- إغيل قفري وهكذا اضمحلت أسماء قبائل ولم يضمحل أفرادها ولم يغادروا البلد وهذا ما يخالف الرأي القائل بأن السبب الوحيد لنشأة القبيلة هو جماعة أصلية أو جد مشترك، فالقبيلة عند القبائل هي اتحاد سياسي يتعدل حسب الزمن وإرادة المتحدين داخل الكنفدرالية أو "التاقبلت" تسبق مصالح العرش مصالح الأولى.

- الصف :

لقد أشار الباحثون إلى صراعات "الصفوف" فما هو الصف SOFF(1)؟

يعني الصف الحزب لكن ليس بمفهوم تجمع أفراد لنصرة فكرة سياسية أو دينية، بل هو جمعية لتقديم المساعدات ويكون حسب التموقع الجغرافي أو السكاني داخل القبيلة أو أحياء القرية، وهذه المساعدة تكون وقت الحرب والسلم، مبدؤه العام [ساعد أقربائك ظالمين أو مظلومين] اللجوء للصف يكون لطلب العون والحماية، كل قرية تحوي على العموم صفين غالبا ما لا يكونا متوازيين من حيث الأفراد و الإمكانيات. إذا أحس أحد أعضاء الصف بانعدام الامتيازات داخل صفه غادره دون الإحساس بالخيانة إلى صف آخر فالمهم لديه هو إشباع طلباته. ورغم ذلك يعطي القبائلي للصف اعتبارا وحرمة كبيرين فقد يصبح همه الأول الذي قد يهمل لأجله علاقته العائلية وأموره الشخصية ليقدم نفسه قربانا لذلك وليس من الغريب أنه لأجل أشياء تافهة كمشادات كلامية بين رجلين من صفين مختلفين قد تؤدي إلى الاستنجاد وهرولة أنصار كليهما لنجدة قريبه حتى لو لم يعرفا أسباب الخلاف فتبدأ المعارك بالأحجار ثم البنادق والسيوف، وقد تصل إلى حرب أهلية – الصف في قبائل جرجرة الجزائرية بقابله اللف عند قبائل البربر المغربية.

ب - ماسكراي إميل : كان أستاذا للتاريخ ثم مديرا لمدرسة الآداب، درس البنيات والمؤسسات القبلية في منطقة القبائل والأوراس والميزاب في كتابه الموسوم: نشأة الحواضر عند السكان المستقرين بالجزائر والمنشور سنة 1886م وربطها بالمشروع الاستعماري خصوصا في مجال التعليم: أشار في هذا الكتاب إلى التحالفات القبلية التي لا تتحقق إلا عند مجابهة خطر خارجي وتكلم أيضا عن دور الصلحاء داخل القبائل.

يرى ماسكراي أن العالم البربري يتكون من الداخل إلى الخارج عن طريق تموضع طبقات متتالية تبدأ من القرية حتى القبيلة تتضامن فيما بينها بطء، هذه الطبقات تتعارض وتندمج حسب الظروف بحيث تنتج أفراد أو أشخاصا جددا.

ويقصد البربري بالمجتمع الإفريقي مجموعة أفراد ولا يحمى أو يعاقب إلا الأفراد، أما العائلة والعصبية فتنحل داخل المدينة حيث ينسى البربري روابطه الدموية.وتنطلق هذه المجتمعات من مبدأ واحد هو احترام الحرية والتعاطف المتبادل بين الناس داخل الحدود الضيقة وتنظمها جماعة هي في الحقيقة مجلس ارستقراطي تطبق قانونا عرفيا يستند إلى ذاكرة الأجداد، هذه المجتمعات

---

[1] - A , HANOTEAU et A, Le tourneux, Les coutumes Kabyles, Besti éditions, ALGER.

رغم غيرتها على حقوقها الفردية إلا أنها تذعن لسلطة رجال ملتزمين (صلحاء) وأقوياء قانونهم هو قانون القرية.

يجب إعادة كتابة تاريخ هذه الأمم التي عانت من قمع روما وتجاوزات الوندال وطغيان البزنطيين وتخريب الفاتحين العرب الأوائل والمتأخرين من بني هلال وبني سليم الذين لا يأبهون لممتلكات الأمم المتحضرة، ثم الأتراك والقبائل المسلحة ضد بعضها البعض مما جعل الفوضى والقتل هي القانون السائد.

الحرب وحدها أو العدو الزاحف نحو الجبل هي الوحيدة التي أسست القبيلة فعند نداءات النجدة وصيحات الثأر التي تسمع في الأماكن المجاورة تتكون رابطة ويستعد للمواجهة وحتى المجموعات الصغيرة المنعزلة واللامنضبطة تدخل تحت طاعة وقيادة الاتحاد القبلي. إن عدد كبير من القبائل البربرية لم تتوحد طوال حياتها داخل كنفدراليات وإذا حدث أن توحدت فسبب عنف عابر أثناء الاستعمار التركي أو غزونا أو ثورة 1871م فالحرب هي التي وازنتهم ومنعتهم من التآكل الداخلي وفي غير هذه الحالة فإن مصالحهم تبقى متمايزة، وهذا الانقسام كان سببا رئيسيا في خضوعهم النهائي وحتى في حالة الحرب فإن كل قبيلة تمشي وتسير حسب وقتها وتكافح كما تشاء وتنسحب متى تشاء.

ويرى ماسكراي أنه يخالف المؤرخين المسلمين كابن خلدون الذين يرون العالم البربري كتلة متجانسة مجزئة إلى أمم وعشائر وقبائل وعائلات بحيث في هذا النظام تلد الأمة العشيرة، وتلد العشيرة القبيلة وهكذا حتى تصل إلى الفرد في الخاتمة لكل العكس هو الصحيح.

كما يؤكد ماسكراي على أن الظروف التي زرعها الاستعمار الفرنسي من قانون العقوبات والقوانين الاستثنائية التي فرضت على الأهالي يضاف له التطور المتزايد للحضارة الأوربية عدل بل دمر التنظيم الاجتماعي والسياسي للمجتمع القبلي في الجزائر وهو يقولها بروح المواطن المناضل لقضية فرنسا أكثر من تقريره لحقيقة موضوعية فلا عجب أن نعت بالباحث الاستعماري أو كما يسميه جاك بيرك مخبر أسياده الباريسيين Les maîtres Parisiens وهو ما اعتبره فشلا له(1).

ج - دوماس أوجان : كان دوماس جنرالا وعضوا في مجلس الشيوخ ومستشارا لنابوليون الثالث كما كان عضوا في المكاتب العربية، تطرق في دراسته هاته ـ التي نشرت عام 1853 إلى عادات وأعراف مختلف أجزاء التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، يبدأ أولا بالأساس الاجتماعي الذي تقوم عليه تجمعات المجتمع المدروس فيقر بأن القبيلة هي أساس التنظيم الاجتماعي في المناطق العربية ثم يحلل مورفولوجيا القبيلة قائلا: بأن اجتماع عدة فرق يشكل القبائل الكبيرة، أما القبائل الصغيرة فتتكون من اجتماع عدة مداشر وقرى (دواوير)، وهذه الأجزاء تسمى: خروبة-تخند (الفخذ)، العرق وقد تتفرع هي الأخرى بدورها إلى قرى (دشرات)، اجتماع كل هذه الأجزاء يشكل العرش وهو بمفهوم القبيلة في اللغة العربية. ثم يشرح مورفولوجيا سكان الجزائر بتقسيمهم إلى أصلين متمايزين هما: العرب والبربر، بالنسبة للعرب جزء منهم يسكن المدن ويسمى حضر وهم أقلية، أما الأكثرية فهم البدو الذي يسكنون الخيام وينتشرون في الأماكن الخصبة والجبال والهضاب العليا، وتتميز هذه المجتمعات (الرحالة) بتأثير العصبية الدموية

---

[1] -Emile Masqueray, Formation des cites chez les populations sédentaires de l'ALGÉRIE archives maghrébines (CNRS) EDISUS la calade 13090 aix en provence, 1983.

والشكل الارستقراطي للحكم وعدم الاستقرار في مكان ثابت، وتتميز القبيلة العربية باجتماع عدة عائلات تنسب لأصل مشترك ويميزها أيضا الاتحاد ضد الجيران والغرباء وهي إضافة لكونها وحدة اجتماعية فهي وحدة سياسية وإدارية تتكون من فروع ذات أسماء مختلفة منها: فرقة- روابع- فخاذ- خمس(1).

ثم ينتقل إلى وصف الأماكن الجغرافية وعادات ساكنيها ابتداء من التل إلى بلاد القبائل إلى الصحراء حيث شخص المؤسسات والرموز والدين والحروب بين القبائل.

د - مونتاني روبير: كان ضابطا في البحرية الفرنسية، تزامن كتابه الموسوم في طبعته الأصلية "الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر" بصدور الظهير البربري عام 1930م بالمغرب والذي نص في ديباجته "على أن المناطق البربرية التي لها أعراف خاصة يجب على القضاء الأخذ بها دون سواها" مما يعني أن المشرع الفرنسي استفاد واقتبس كثيرا من هذه الدراسة التي تركز على الخطوط العامة للحياة البربرية ذات الطابع الريفي.

يتشكل السكان حسب مونطاني من قبائل ووحدات سياسية صغيرة الأبعاد، فبضع مئات من البيوت أو الضيعات الصغيرة يمكن أن تشكل جمهورية مستقلة في نشاطاتها الاقتصادية والسياسية. و يتميز البربر المستقرون بحب الأرض الأصلية وحب الاستقلال أو التسيير الذاتي -Self government لمؤسساتهم المحلية ضد هيمنة الحكومة المركزية، وهذا الشعور أي الارتباط بالأرض يقابل عند الرحل حب الحرية الفردية والجماعية والحفاظ على التقاليد والطقوس. كما تتميز المناطق البربرية بتشابه التراث رغم اختلاف نمط الحياة والمجال الجغرافي، فصناعة الفخار أو النسيج أو الزراعة هي نفسها في جميع مناطق شمال أفريقيا.

يتميز التنظيم الاجتماعي عند المستقرين Les sédentaires بوجود أربع بنيات هي: القرية- اتحاد القرى أو الفروع- القبيلة التي هي اتحاد يجمع اتحادات القرى- الكنفدرالية المشكَّلة من عدة قبائل أو اتحادات، لا تتوحد هذه الأجزاء إلا عند وجود خطر خارجي وحتى في هذه الحالة الوحيدة أحيانا لا تتفق على تعيين زعيم واحد فقد تختار كل جبهة أن تحارب بمفردها كما وقع في السوس والريف عند مواجهة هذه القبائل للمخزن، تضاف إلى الخطر الخارجي عوامل موحدة للقبائل: كوجود قانون عرفي- الاعتقاد بالنسب المشترك- وجود سوق مركزي أو الشعور بالكراهية ضد قبيلة مجاورة.

أما في مجتمعات الرعاة فهناك مجموعات متجاورة أهمها" الدوّار SOUS fraction- الفخذ، البطن المكون من عدة أفخاذ ثم القبيلة التي تجمع عدة بطون تكون عادة أربعة أو خمسة لها مجلس يتكون من رؤساء العائلات الكبيرة ويترأسه شخص يدعى – الأمغار- أي الرئيس.

يعتبر مونطاني القبائل مجموعات مستقلة منغلقة على بعضها البعض ومتجاورة على شكل وحدات ويتكلم بهذه المناسبة على نظام اللّف Leff الذي هو تحالف عائلي جماعي عسكري اقتصادي وسياسي بين وحدات قبلية دوره الأساسي دفاعي يتمثل في حفظ التوازن بين المجموعات حتى لا تأكل القوية منها الضعيفة لأن القبيلة تنقسم عادة إلى صفين أو لفّين متعارضين، يضم كل

---

[1] - Eugene Daumas, Mœurs et coutumes de l'ALGERIE edition ANEP, ALGER 2006

لف عدد متوازي من الفروع المتحالفة التي تجمع الأفراد داخل اللف لا الأمكنة في أخوة تشكل بديلا للوطنية الضيقة.

يقابل اللف، الصف في منطقة القبائل الجزائرية الذي يقسم المنطقة إلى خطين متعارضين هذا النظام يبرّره ويفسّره البعض من منطلق علم النفس الاجتماعي "بأنه إسقاط على الأرض لنظريتين متعارضتين ومتكاملتين في الحياة البربرية هما الروح الجماعية والمشاركة أو التساهمية والرغبة في الفتنة أو العكس ذلك أن نظام اللّف في بداية تكوينه يكون عرقيا قرابيا ثم يتحول إلى أهداف سياسية وتجارية"(1). هذا ما جعل غلنر في تقديمه للكتاب يعتبر أن مونطاني قدم أطروحتين تخصان علم الاجتماع السياسي للبربر هما: أولا أن العامل الأساسي في توازن القوى داخل هذا المجتمع يرتكز على تحالفات اللّف والصّف التي تفسر التعارض والتوازي كأساس لميكانزم الاستقرارو الثبات، ثانيا أن هذه المجتمعات تتأرجح بين الجمهوريات القبلية الديمقراطية وبين الأقلية الاستبدادية وهي التحليلات التي ارتكز عليها غلنر فيما بعد وهو ما يجرنا للحديث عما يسميه مونطاني بظهور السلطة والرئاسة عند الرؤساء الزمنيين في المجتمعات البربرية والذين من صفاتهم الطموح والحيوية وقدرتهم على تجاوز مجالس الأعيان وسرعة توحيد وتركيز القوى، ينتقل نفوذهم من القرية إلى القبيلة ومنها إلى الاتحاد القبلي وقد يتحولون إلى قادة كبار أو "قياد كبار" بتعبير سكان الأطلس.

ينتخب "الأمغار" أو الزعيم بطريقة تداولية لمدة سنة واستنادا إلى مبدأ المساواة السائد في "الجمهوريات البربرية" والذي يعكس النظرة الذكورية والعصبية النظام الاجتماعي(2)، فإنه من المفروض أن يكون التداول على الرئاسة من قبل كل العائلات داخل مجلس الأعيان. ولكن رغم هذه المساواة الظاهرة إلا أنه في الخفاء يمارس الأثرياء نفوذهم لإيصال صاحب الجاه للرئاسة وهذا بإرشاء أعضاء المجلس حتى يضمن رئاسته أو يبقى "مقدّما" لمدة 5 سنوات رغم أن العرف يحصر العهدة في واحدة، إلا أنه لا أحد يجبره على الانتخابات بسبب قوته ونفوذه وهذا لا يعني رضا وسكوت بقية الأطراف المنافسين والأشخاص الطموحين للاطاحة "بالأمغار" لذلك وجب على الرئيس لكي يحافظ على سلطته أن يكسب ودّ وتأييد العائلات المنافسة وإلا سقط في أول معارضة داخلية له وضرب مونطاني مثالا لذلك بما وقع في قبيلة سكساوة التي ترأسها "مختار بن حمو" بفضل مصالحته لمناوئيه حيث أقام حفلا لدى انتخابه واستدعاهم لتصفية الأجواء ثم اختلى بهم وقتلهم بمعونة إخوته حدث ذلك سنة 1880م.

إضافة إلى المنافسة مما يضعف أيضا الأمغار "ضعف موارده المالية، فعن طريق المال يظهر كرمه داخل لفّه ويتدخل لحل النزاعات ويساعد إخوانه داخل اللف بالمحاربين، كما يقيم تحالفات ويحترم العرف مادام لا يخالف مصالحه ويحافظ على وحدة اللف أطول مدة ممكنة بفضل دعم عائلته والعائلات المتحالفة معها ضد العائلات المعارضة.

ثم يقرر مونطاني بأن الشروط العامة التي يظهر فيها الأمغار داخل جمهوريات الجبل هي نفسها في كل المناطق البربرية باستثناء بلاد القبائل الجزائرية حيث يعرقل نظام الصف هناك

---

[1] -Mohammed Tozy et Abderrahmane Lakhassi, Le MAROC des tribus: My the realite in: HOSHAM DAWOD et autres ouvrage collectif: Tribus et pouvoirs en terre d'islam Armand Colin, Paris, 2004, p178.

[2] - Mohamed Toz y et Abderrahmane Lakhassi, le Maroc des tribus, opcit, p182.

وجود إجماع حول ترشيح شخص، ففي هذه الظروف يخلو الجو للرؤساء الدينيين والمرابطين لأنهم يحسنون التعامل مع الفتن البربرية، فالصلحاء يتسامون فوق الصراعات ويلعبون دور الوسيط المحايد.

نظام اللف مكّن الجماعات المستقلة عن النظام المركزي من تسيير نفسها سياسيا وضبط نزاعاتها والمحافظة على نظامها الاجتماعي في غياب هيئات متخصصة وهو السؤال الذي طرحته الانقسامية(1) وهو ما يؤكد على أن مونطاني عالج علاقة المجتمعات القبلية بالحكومة المركزية (المخزن) وهذا يجرّنا إلى تناوله للقبائل التي كانت علاقتها متوترة مع المخزن والتي تعرف بالسيبة : و تعني الثورة التي تمكن القبائل من استعادة مجدها وتظهر عقب موت السلطان أو هزيمته، يكون هدفها رمز السلطة (القايد) وسلب ممتلكاته وتوزيعها على حسب ما يدعى كل فرد فيها امتلاكه للجزء من الغنيمة المخصص له فتدّعي السيبة أنها تثور لرفع الظلم واسترجاع حقوقها المغتصبة من الحكم المركزي، وفي سبيل ذلك تمارس عنفا يصفه مونطاني بأنه أشد من استبداد المخزن، فعند اشتعالها تأتي على الأخضر واليأس، هذه الثورة(2) تعطي صورة عن ضعف التنظيم المركزي للحكم أو المخزن، ففي الوقت الذي يستمد "الأمغار" سلطته من قوته الشخصية واعتمادا على أشخاص أوفياء داخل مقاطعته الأصلية القبلية فإن "القايد" على العكس من ذلك يعتمد على جند مرتزقة غرباء أو عبيد لا تجمعهم به رابطة ولاء وإخلاص لذلك لا يتحمسون للدفاع عنه، بل ينفذون بجلدهم حينما تحين الفرصة.

السيبة تعني أيضا قبائل الأطراف الهامشية أو المهمشة والبعيدة عن مركز الدولة كما سنرى فيما بعد ذلك.

هـ - إميل دوركايم: تعتبر الدراسات السابقة بذورا جنينية للأطروحة الانقسامية، توازت مع أعمال دوركايم التي تجسدت في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" المنشور سنة 1893م والذي يتمحور حول مفهومي التضامن الآلي والتضامن العضوي،حيث تبين له أن المجتمعات البشرية تنتقل من أشكال التضامن الآلي إلى أشكال التضامن العضوي بالتدرج عبر سيرورة تاريخية تبدأ من المجتمعات البدائية البسيطة والمحدودة النطاق والتي لا تخضع لمبدأ توزيع العمل بحسب الجنس وفئات العمر، فالوظائف غير مميزة والملكية والمسؤولية جماعيتان، يتصف هذا المجتمع بالتجانس وتشابه الوحدات القرابية من الناحية البنائية، والفرد لا يتمتع بشخصية مستقلة عن الجماعة، هناك قوة الوعي الجمعي وتركز للحياة الاجتماعية حول العلاقات العائلية، هذا التماثل بين العناصر المكونة للمجتمع هو الذي نشأ عنه التضامن الآلي، ثم بتطور المجتمع البشري انتقل إلى نوع آخر من التضامن يفرض الاختلاف والتكامل الناتجين عن تقسيم العمل اللازم للنمو الديمغرافي، تتميز هاته المجتمعات بأنها معقدة التركيب(3) واسعة النطاق تتضح فيها مسؤولية ووظيفة كل فرد في هذا النوع من التجمع الإنساني توجد طبقات وتراتب وهو خاصية المجتمعات المعاصرة والتي يطبعها التضامن العضوي.

---

1 - Pierre Bonte et autres, Emirs et présidents, CNRS éditions, Paris, 2001, p39.

2 - Robert Montagne, regards sur le Maroc (préface de jacques Chirac premier ministre), centre des études sur l'Afrique et 'ASIE moderne, CHEAM, Paris, 1986, le titre original est: la vie sociale et politique des berbères.

3- د. صلاح مصطفى الفوال، مرجع سابق، ص 121.

ثم تكلم دوركايم عن مفهوم الجماعة القطيعية La horde التي يعتبرها المبتدأ الأول للمجتمع البشري، تتميز بالتجانس والتشابه وعندما تنضم لجماعة أوسع تسمى "عشيرة" ثم تنتقل العشائر كتكتل بسيط ومستقل بذاته إلى الانصهار ضمن جماعات تتجاوزها حجما وسعة، هذا المجتمع المتكون من عشائر متشابهة سمح بظهور المجتمع الانقسامي المبني على تعاقب تكتلات تتشابه فيما بينها مثل الحلقات ويمكن تسمية الكتلة عشيرة فهذه التسمية لها طبيعة عائلية وسياسية في نفس الوقت، إذ تجمع قرابة الدم جل أفراد العشيرة وهو ما يولد لديهم شعورا بروابط القرابة.

إذا فتشابه القسمات هو أساس التنظيم الانقسامي وبدون هذا التشابه لا يمكنها أن تتحد أو تتباين في الوقت نفسه وبدون هذا التباين سيضيع بعضهافي بعض وينتهي بها المطاف إلى التلاشي(1) وفقا لميكانزمات الانصهار والانشطار.

و - جاك بيرك : يحسب على التيار الكولوينالي ولكن بدرجة متميزة من الموضوعية حيث انتقد بعض مقولات المدرسة الاستعمارية كالثنائيات المتوازية الأمر الذي رشحه عند البعض لاعتباره رائد مدرسة أو نظرية نزع الاستعمار في أفريقيا البيضاء مثلما كان جورج بالانديه Balandier رائدها في أفريقيا السوداء(2). كما قام بتقييم وإعادة النظر في الكتابات السوسيولوجية التي تناولت مجتمعات المغرب العربي في بحثه المعنون: "مائة وخمسة وعشرون سنة من سوسيولوجية شمال أفريقيا" اهتم بيرك بالقبيلة في المغرب في دراسته الشهيرة حول قبيلة "سكساوة في الأطلس الأعلى" بين مراكش وأغادير والتي كانت محل دراسة مونطاني أيضا، استعمل بيرك المنهج التاريخي لأن التاريخ حسبه هو المنطلق والنتيجة، كما لا يمكن فهم أية ظاهرة محلية بدون ربطها بسياق التطور الذي عاشته المنطقة خلال قرون متعاقبة وهذا ما جعله يبحث عن ماضي المجموعة وتاريخها كما قال بين وديان وأعالي الأطلس.

مكّن التحليل الاجتماعي التاريخي بيرك من فهم بعض مظاهر السلوك الجماعي والخصائص العقلية والنفسية التي مازالت تتحكم في العلاقة بين الأفراد والجماعات ضمن جدلية الصراع الموروث عن الماضي يقول: "أن الموالاة والانتقام والنميمة تصبح هي المفاهيم المحركة لحياة اجتماعية تتأرجح باستمرار بين الواجهتين اللتين يتشكل منهما العنف الاجتماعي: الخضوع والتسلط، هذه الظاهرة ليست ناتجة عن نقص في الحس الأخلاقي والعدلي بقدر ما تعكس رغبة ملحة في التعويض، إن التطور التاريخي هو الذي يفرض تعاقب المراحل التي تكون أثنائها المجموعة إما متسلطة أو مضطهدة وذلك بالرغم من نزوع الوسط الاجتماعي بأكمله إلى تفضيل قيم المساواة"(3). ثم قام المؤلف بتشريح البنية القبلية في مؤلفه: "البُنى الاجتماعية في الأطلس الكبير" حيث عاين أن الوحدة السياسية الرئيسية داخل هذا المجتمع هي القبيلة أو "التاقبلت" التي تتفرع إلى مجموعات صغيرة تسمى (الإخص): يتميز هذا المجتمع بالأبوية والفردانية وحب المحافظة على الذات من أي تدخل خارجي وارتباط أفراده بأرضهم حيث يسود لديهم وعي بديمومتها، يتأرجح التنظيم السياسي عند سكساوة بين تناقضين:

---

1 -Emile Durkheim, de la division du travail social, 7eme édition, Paris Presse Universitaire de France, 1960, p 152..

2 -Abdelwahab Bouhdiba, a propos d'une théorie de la colonisation in: a la recherche des normes perdues, maison tunisienne de l'édition 1973.

3- د. محمد الدهان (جامعة الملك محمد الخامس)، مجلة إضـــافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع) تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع، العدد 7 صيف 2009، بيروت، ص 46.

فمن جهة هناك النزعة المساواتية التي بموجبها يؤمن الأشخاص بأنهم متساوون في الحقوق والواجبات لأنهم أبناء جد واحد، لا فضل لأي منهم على الآخر ومن جهة أخرى هناك فئة مميزة تنفي هذه المساواة الشكلية ألا وهي فئة الرؤساء أو "القياد الكبار"(1)، أو باللغة المعاصرة السياسية هناك تأرجح بين التوجه الديمقراطي والاستبداد أو بين المغالاة في استعمال السلطة الفردية وتركيز الثروة في يد العائلة الحاكمة وبين تفضيل المجتمع القبلي للنظام الديمقراطي وقيم المساواة.

ينتقد بيرك فكرة النسب المشترك التي يرى أن اللجوء إليها مجرد وهم تؤمن به السلالات، إذ يتقاطع عبر الجد المشترك عدد لا حصر له من الأصول وهذا بسبب الانتشار المبكر لفروع أساسية رمت بأغصانها صوب كل الاتجاهات كقبائل "لواتة" الليبية التي لها امتداد في المغرب حيث لازالت مجموعتان تحملان هذا الاسم في منطقة بن كرير وكذلك في الجنوب الجزائري. كما لاحظ أن معظم القبائل تقبل وتدمج عناصر خارجية حيث تقوم بإعادة تأويل(2) مستمر للعناصر الثقافية الواردة من الخارج وفق متطور محلي وإدماجها في النسق الثقافي المحلي دون فقدان استقلالها الذاتي وهويتها وهي إحدى المميزات الأساسية للتنظيمات الاجتماعية في الأطلس الكبير، هذا الازدواج اعتبره بيرك تناقضا بين الشخصية الجماعية وأصل الخلايا المكونة لها، لذلك اتخذت المجموعات شكلين متناقضين هما: الانصهار والانشطار، يضع الانصهار داخل نفس التسمية عناصر ذات أصول خارجية تعتقد في الهوية الوحدوية.

أما الانشطار فيقوم بتكسير الوحدات وتجزيئها إلى وحدات ترابية ومعنوية تتجسد في المداشر المتنافسة، العصب، الطبقات والأحزاب "وهو ما جعل شمال أفريقيا أرض ظلت باستمرار تبحث عن هويتها، وقد زاد من جراحها تسلل نمط العيش البدوي الذي زوده بنو هلال بالمادة البشرية، كما ساهم نظام الحكم العربي القائم على الاستبداد في نشر الشكل القبلي"(3).

ويقارن بيرك تكوين البناء السياسي بين شمال أفريقيا وأوربا التي تم إنجاز البناء فيها انطلاقا من عناصر صغرى ومعزولة (الضيعة الملكية، المدينة) وبعد أن نضج مسلسل الالتئام رسخت الوحدة الوطنية، أما في المغرب الكبير فإن سُلَطه المكونة من زعامات قبلية وقيادات فردية وأسر حاكمة وحركات روحية، فإنها تلتهب وتنطفئ بسرعة مدهشة وهذا بسبب عملية التفكيك القبلي التي قام بها الاستعمار باستحواذ المعمرين على الأراضي واستبدال الإطار الأبوي المتمثل في أولاد فلان بالإطار الجغرافي وهو ما تضمنه قانون الإصلاح العقاري الصادر عام 1863 والذي به بدأ مسار التفكيك القبلي(4).

ومما لاحظه أيضا بيرك في الحياة المحلية هو العدد الهائل للصلحاء ودورهم في لم شمل الجماعة وتوحيد القرية ونشر المبدأ الصوفي في البادية خلال القرنين 15 و 16م.

واكتشف ذلك من خلال قراءته "لنوازل المازوني" التي وصفت البدو بالنُّهاب لأملاك الفلاحين والقطاع على ما في أيدي الغير أو ما يسمى قانونا بالغصب، فكان أن ساهم الصلحاء في إصلاح

---

1 -Jacques Berque, Les sociétés nord, Africaines vue du haut atlas in: OPERA minora, p177.

2- د. محمد الدهان،مجلة إضافات، مرجع سابق، ص من 67 إلى 69.

3 - Jacques Berque , Qu’est ce qu'une tribu nord-africaine ? in opéra minora, op.cit.

4 - Jacques Berque, Qu’est ce qu'une tribu nord-africaine in opéra minora, op.cit.

حال هؤلاء البدو وكانوا سببا في توبتهم. وخلص بيرك من دراساته للبنى الاجتماعية المغربية إلى استنتاجين هامين:

الاستنتاج الأول: أن المجموعات القبلية في الأطلس الكبير تنتمي إلى كيان أوسع يتعدى الحدود الجهوية والقطرية ليعم منطقة المغرب العربي بكاملها فهناك استمرارية أفقية وتشابه بين كل التنظيمات العائلية في المدن المشكلة في القمة من النسب الأبوي في صبغته الحقيقية أو الوهمية، وفي القاعدة ترتبط بخلايا متشابهة، كما أن هناك تجانسا بين البدو الرحل العرب منهم والبربر وبين القبيلة البربرية والمدينة الإسلامية.

الاستنتاج الثاني: يستتبع الأول وهو التجدر التاريخي العميق لكل التنظيمات القبلية وحتى القبائل النائية التي تبدو لأول وهلة بعيدة عن كل احتكاك حضاري فهي ليست معزولة عن الحركة العامة للمجتمع فقبيلة سكساوة التي تبدو ظاهريا منعزلة استطاعت أن تؤثر في المشروع الموحدي كما حافظت على خصوصياتها لمدة 10 قرون.

❖ الانقسامية والمجتمعات المغاربية:

شكّل المغرب ولا يزال حقلا ممتازا ومجالا خصبا لدراسة القبيلة، لذلك مارست الانقسامية إغراء كبيرا على الباحثين المهتمين بالمجال القروي المغربي وشمال إفريقيا وهذا بالتواصل مع بحوث إيفانز برتشارد الأفريقية و نموذجه القرابي الانقسامي، لكن هذه المقاربة لم تمر مرور الكرام، فأثناء ظهورها في الستينات أثارت مخاوف في المغرب العربي، فطابعها المخيف الذي يصرح بوجود قبائل لها أهمية في ظل دول مستقلة وحداثية واقترنت بالفتنة والعودة إلى الانقسامات الجاهلية التي حاربها الإسلام واعتبرت نظرية للعنف المهيكل أو الفوضى المنظمة، أما عند النخبة الحاكمة فاقترنت بالماضي (أي القبيلة) والقبول باللعبة القبلية يعني تشويه صورة البلاد وسمعتها اتجاه أصدقائها في الخارج خاصة فرنسا التي عناها بورقيبة بالذكر في هذا الخطاب(1).

كانت البداية مع أرنست غلنر الذي قام سنة 1969 بدراسة لقبائل الأحنصال البربرية الموجودة في الأطلس كنموذج اجتماعي يضم حقائق اجتماعية قد نلحظها عند البربر أو التوارق أو في المشرق العربي أو آسيا أو القرن الأفريقي باعتبار تاريخ القبيلة يدخل ضمن تاريخ المجتمعات المركبة.

انطلق غلنر في كتابه "صلحاء الأطلس" الصادر سنة 1969 Saints of ATLASوالذي خلص فيه إلى أن قبائل شمال أفريقيا عموما وقبائل الأطلس المغربي قبائل انقسامية تنطوي على هرمية متدرجة بحسب الحجم والقوة تتشخص في شكل دوائر أو أشجار متكاثرة الفروع ويقوم التوازن الاجتماعي فيها على مبدأي الانصهار والانشطار، يظهر المبدأ الأول في حالة الخطر وفقدان الأمن فتتوحد القسمات ويسود التضامن ويظهر المبدأ الثاني في حالة السلم والهدوء حينما يدب النزاع بين الفروع والقسمات المتجاورة أو ما يسميه بنظرية الأنصاف ويتجسد ذلك في المثل العربي الذي اعتبره الانقساميون نموذجا للتوازن والتعارض داخل المجتمع الانقسامي وفحواه:

- أنا ضد أخي أو إخوتي (حينما يقع نزاع داخل العائلة الواحدة بسبب الميراث).

---

[1] -François Pouillon, La société segmentaire et ses ennemis prologue N° 32, opcit, p13.

- أنا وأخي ضد أبناء عمي (بسبب استعمال قناة ري بين حقلين متجاورين).

- أنا وأخي وأبناء عمي على الغريب (سواء أكان عشيرة أمن مجموعة بسبب استعمال المراعي مثلا). وإضافة إلى استفادته من دوركايم وبرتشارد، استفاد غلنر أيضا من أعمال الثنائي: هانوتو ولوترنو وأيضا مونطاني فيما يخص مفهوم الديمقراطية التي لاحظوها في المجتمع البربري وهي ديمقراطية بنيوية ليس لها أي بعد إيديولوجي(1)، ما معنى ذلك؟

حسب رأينا تعني أن الديمقراطية مطلب تطالب به القبائل في علاقتها ببعضها البعض وليس خطابا يمارس داخل القبيلة.

إضافة إلى خاصية الانقسامية الموجودة في قبائل الأطلس الكبير وهي خاصية بنيوية، أكد غلنر Gellner على صفة ثانية مهمة وهي الهامشية وهي خاصية مجالية متصلة بالموقع وتعني تمتع القبائل بحرية سياسية وثقافية إزاء الحكم المركزي فهي مجتمعات موازية للمجتمع المركزي بل كانت سببا في عدم تطور ونهوض الحكم المركزي طوال عهد ما قبل الاستعمار(2).حتى هذه القبائل نفسها لا توجد بها سلطة مركزية لأن السلطة موزعة داخل كل البنيات القبلية وبذلك تمنع الانقسامية كل تركيز للسلطة وللعنف في هيكل متخصص (الدولة)، باستثناء وجود سلطة معنوية تحافظ على الاستمرارية والتوازن يمثلها الصلحاء أو المرابطون أو العائلات المبجّلة والتي هي هيآت محايدة مسالمة لها عدة أدوار كالوساطة والتحكيم وتنظيم المبادلات التجارية وضمان أمن الحدود، فهي سلطة روحية تسمو على النزاعات.

يعبر عن الهامشية في المغرب بمصطلح السيبة الذي كان مجالا لدراسة مونطاني وبيرك وهو مشتق لغة من التسيّب وعدم الخضوع، اقترنت بلاد السيبة أو قبائل السيبية بقبائل الأطراف أو المجموعات المستقلة التي كانت تأوي للجبال والمناطق المتاخمة للصحراء كجبال القبائل والأوراس بالجزائر وجبل البربر بالمغرب والمرتفعات المحصورة بين خمير وجبل وسلات ومطماطة بتونس وجبل نفوسة بليبيا(3).

يقابل مصطلح السيبة، مصطلح المخزن والذي يشير إلى أجهزة الدولة المركزية الموجودة في العاصمة أو المدن وسمي بالمخزن لأن القبائل كانت تخزن المحاصيل الزراعية في مستودعات الحكومة، هذه الثنائية الجدلية ميزت لفترة طويلة تاريخ المغرب العربي ومما ساهم في هذه الفجوة بين البنيتين حسب غلنر هو ظروف المناخ وظروف الوسط الطبيعي، واضطرار الرعاة إلى الانتجاع عبر مسافات طويلة مع إقامة نظام دقيق لحقوق الرعي (إقامة حدود زمانية، مكانية، فصلية) واضطرار هذه القبائل للتجارة بسبب ضعف محصولها الزراعي خاصة الحبوب حفز الحكومة المركزية على عدم التدخل لضمان النظام العام والشؤون الخاصة للقبائل وصادف ذلك رغبة دفينة فيها.

هذا عن خاصية الهامشية التي هي صفة تستتبع صفة الانقسامية التي رأينا سابقا أنها سمة النظام السياسي والاجتماعي لقبائل الأطلس الكبير منه والأوسط حيث رأينا انقسام كل قبيلة إلى فروع تنقسم بدورها إلى أجزاء حتى إلى الوحدات العائلية والتي يجمعها خط الانتساب الأبوي

---

[1]- د.محمد نجيب بوطالب ، سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي، مرجع سابق، ص 43.
[2]- د.ليليا بن سالم وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، مرجع سابق، ص 21
[3]- د. محمد نجيب بوطالب، مرجع سابق، ص 115.

حيث يأتي على رأس الشكل الانقسامي الجد الرمزي وتتوسطه العصائب المترابطة فيما بينها بنسب وتأتي في الأسفل العصائب الحالية، كل قبيلة أو قسمة لها مجال جغرافي محدد أي موطن خاص بها، تماثل هذه الوحدات أدى إلى انعدام تقسيم العمل على أسس اقتصادية أو سياسية وهذا يعني عدم وجود مؤسسات متخصصة، كما أن الصراع على المستوى الأدنى بين الوحدات لا ينفي التماسك والتعاون في المستوى العلى فلا تمنع الخصومة الموجودة بين عشيرتين داخل قبيلة واحدة من تضامنها ضد قبيلة أخرى وفقا لمقولة: الانصهار والانشطار.

إن انعدام التراتب الاجتماعي هو أيضا نتيجة للتجانس البنيوي داخل القبيلة، فهناك مساواة وتقابل على جميع المستويات على الأقل نظريا، فحتى لو بلغ أفراد وجماعات مستوى من الغنى والنفوذ، فهذا لايرتب لهم مكانة أدنى أو أعلى بصفة دائمة ومقبولة رمزيا باستثناء الأشخاص الطارئون بصفة مؤقتة على القبيلة، فإنهم لا يتساوون في المكانة مع الأصلاء أو النواة الأصلية المكونة لها. لكن غلنر كما أشرنا سابقا أكد على طائفة مستثناة من انعدام التراتب وانعدام هيئة رسمية متخصصة هم فئة الصّلحاء Les saints الذين يضطلعون بدور بارز في ظروف معينة، حيث يمدون القبائل بالاستمرارية والهيكل الذي يفتقر إليهما النظام السياسي، حيث تتم المصالحة وانتخابات الرؤساء داخل الزاوية قرب ضريح الجد المؤسس، واختيار الزاوية ليس اعتباطيا ذلك أن القبائل تنظر إليه على أنه حرم آمن لا يجوز التنازع عنده، فأصبحت الزاوية بديلا عن المصالح الإدارية والمدنية (1) ويدخل ضمن هذه الفئة ما يسميه غلنر "الأنساب المبجّلة" وهي عائلات الصلحاء ذات النسب الشريف والتي أصبحت بديلا عن فئة العلماء التي ساهم غيابها في افتقار الثقافة المكتوبة ونمط العيش الحضري.

هؤلاء الفاعلون يقومون بتحقيق التوازنات داخل مستويات التعارض ومن أهم هذه التوازنات توازن الخوف بين الأفراد والمجموعات بما لهم من دور مهدئ تسكيني للتوتر كونهم مسالمين في مقابل عنف الأفراد، فالوساطة والفصل في المنازعات ومنع الأفراد والمجموعات من الاستبداد والتميز عن المجموعة ككل يساهم في استمرار المجتمع الانقسامي وعدم تلاشيه وهذا في غياب السلطة.

إن خاصية المساواة والديمقراطية الملاحظة في المجتمعات البربرية ليس فقط على مستوى العلاقات الداخلية والخارجية فحسب بل حتى انتخابات الرئاسة القبلية تتميز بخاصيتين هما: التكامل والدور لمدة سنة كاملة، فإذا كانت هناك 3 عشائر: أ، ب، جـ مثلا يفترض مبدأ الدور تناوب كل عشيرة منها على الرئاسة لمدة سنة ولكن من غرائب هذا النظام أن العشيرة التي يترشح منها الرئيس لا تشارك في الاقتراع حتى لا تكون خصما وحكما في نفس الوقت .

أما في المستويات الدنيا من القبيلة فيمكن ألا يحترم هذا المبدأ بسبب قلة الأفراد ذوي الكفاءات الضرورية، هذا النظام يجعل الرئاسة ضعيفة حسب غلنر وتنعدم فيها الاستمرارية المطلوبة لضمان الاستقرار بسبب صغر مدة "الانتداب" (لمدة سنة واحدة)، كما أن انتخابهم من قبل عشائر منافسة داخل بيئة اجتماعية قائمة على تضارب المصالح وانعدام مصالح إدارية وأمينة تنظم وتؤطر العملية، عدا الضغط المعنوي الذي يمارسه الرأي العام،كل هذه الأسباب حالت دون ظهور رؤساء دائمين وفي نفس الوقت هي مزية ونتيجة إيجابية، إذ تمنع وتقطع الطريق أمام الاستبداد السياسي ذلك أن نظام التناوب يمنع انتخاب "الأمغار" لعهدتين متتاليتين.

---

[1]- د. ليليا بن سالم وآخرون، مرجع سابق، ص 31.

لكن هذه الديمقراطية يشوبها خلل، حيث أن حق التصويت ليس حقا معترفا به لجميع أعضاء القبيلة بل هناك حالة تنافي تخص الحرفيين واليهود والسود لأن انتماء هاته الطوائف للقبيلة ولنواتها الصلبة يظل متنازعا فيه، كما أن حق الترشح ليس على إطلاقه بل مفروضة عليه شروط كأن يختار من أشرف قومه ويلعب النسب العريق أي المجموعة الأصلية التي التفت حولها جميع العناصر بطريق شجرة النسب دورا في إقصاء الدخلاء والأجانب في التنافس الشريف على السلطة.

تضاف لهذا الشرط حيازة المترشح لثروة مالية خاصة تملك العقارات وكثرة الأولاد مع تعدد الزيجات يتوجها بشرط معنوي هو حيازته لأعلى مراتب الحكمة والكرم ويعطي غلنر مثالا عن قبيلة "أيت عطاب" التي تسمى المرشح للرئاسة "بأختار" تدعي هذه القبيلة بأن أعضاؤها متساوون في الحقوق بحيث يستطيع أي واحدمنها أن يرشح نفسه للرئاسة كما في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن يبقى ذلك تصورا إيديولوجيا، إذ الواقع هو أن الأسر الكبرى هي التي تمون القبيلة بالمترشحين للرئاسة وهي التي تعترف لهم بالنفوذ، وهذا الاستثناء يجعل فكرة انعدام التراتبية الاجتماعية والمساواة، والديمقراطية القبلية والجمهورية البربرية أوهام وكلمات فارغة من محتواها وإيديولوجية الأقوياء في مواجهة الضعفاء.

إن عاملي النسب والثروة لرؤساء الأسر الكبرى إضافة إلى احتكار الرئاسة، مهام حماية القوافل التي تجتاز المسالك الكبرى وهذا بتفويض من المخزن، ويعتبر حمودي(1) أن قاعدة النسب في المجتمعات الانقسامية لها عدة وظائف فإضافة لكونها تستعمل لتبرير الأوضاع القائمة (إيديولوجية)، فإنها تحدد واجب كل عنصر من عناصر المجموعة في مواجهتها للأخطار، كما تحدد قاعدة التراتب الاجتماعي، بالنسبة للدخلاء والمغزوين الذين يتم دمجهم في نسب الغزاة فقط أثناء العدوان الخارجي، حيث يفرض على المجموعة إبراز التحامها على حساب التراتب لكن عندما يتعلق الأمر بتوزيع السلطة والثروات أو باستغلال المراعي أو بتقسيم مياه السقي، فإن الأجانب الذين غالبا ما يشاركون في جميع المهام داخل المجموعات التي ينتمون إليها، لا يتمتعون بجميع الحقوق والامتيازات الممنوحة للآخرين ويضرب أمثلة عن ذلك بقبيلة "آيت علوان" التي لا يمكنها تقديم مرشح للرئاسة لاتحادية "آيت عطا" وقبيلة "آيت شاكر" التي لم يكن لها حق استعمال مياه السقي، فمبدأ التعاقب والتناوب لا مجال لتطبيقه هنا.

إذا كان اندماج القسمات يحصل فقط عند مواجهة الجماعة لخطر خارجي فهذا يعني أن الروابط القرابية غير كافية لضمان تماسكها وتضامن أعضائها، فالتعارض لا التماثل بين أعضائها هو الذي يحدد وحدة القبيلة، كما أن الاحتياجات والمصالح المشتركة الموحدة هي التي تحدد مدى وجود هذه الجماعات.

ويعتبر غلنر أن الانشطار والاندماج يؤديان باستمرار إلى إعادة توزيع السلطة داخل هذه المجموعات المنزوعة الرأس(2) والمساواتية EGALITAIRE، كما أن علاقة السلطة الوحيدة التي تدوم هي المرتبطة بوظيفة التحكيم التي يمارسها بعض العائلات الدينية بفضل وضعيتها داخل

---

[1]– د. عبد الله حمودي، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة "ملاحظات حول أطروحة غلنر" في الأنثروبولوجيا والتاريخ خالة المغرب العربي، مرع سابق، ص 68.

[2] - Pierre Bonte et autres, Al ansâb, la quête des origines, édition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1991, p24.

الترتيب الانقسامي وهذا لا يعني أنها في جميع الحالات محايدة، فقد شاهد عند دراسته لقبائل "الأحنصال" المغربية أن دور الصالح وسلطته كدور سياسي فعال لا تنحصر فقط عند التحكيم بين متخاصمين بل يصبحون أحيانا أطرافا في النزاع.

إن تأرجح المجتمعات الانقسامية بين الانصهار والانشطار وما بين التجزؤ والتوحيد اللذان يميزان ديناميكية هذه المجتمعات تركت غلنر يتساءل عن سر هذا التناقض وتوصل إلى أن نفور أعضاء هذه الجماعات من كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ظهور جهاز سلطوي مركزي وتعلقهم بقيم العدالة والمساواة فيما بينهم لذلك "تتجزأ هذه الجماعات لكي لا تحكم"(1).

إذا النفور من النظام والانضباط والانقياد والخضوع باسم الحرية والمساواة هو السبب الخفي الحقيقي للتجزئة وأما المساواة التي تعني أن كل أفراد القبيلة أبناء عم ونظراء فهي صورة لديمقراطية بنيوية وليست ذات بعد إيديولوجي كما سبقت الإشارة إليه، فكلما استولت قبيلة ما على الحكم المركزي تبادر إلى تأسيس نظام ملكي عوض تأسيس نظام ديمقراطي(2..).

كذلك فإن تحليلات وأعمال أرنست غلنر كان لها تأثير كبير على الأنثروبولوجيا المغاربية خلال السبعينات فقد كان مقتنعا بأن قبائل الشمال الأفريقي خاصة قبائل الأطلس بأنها انقسامية حيث رد على إيفانز برتشارد الذي اعتبر القبيلة أكبر جماعة بشرية يعتقد أعضاؤها أن من واجبهم حل نزاعاتهم بالتحكيم، فتساءل غلنر هل هذا يعني أنه يمكن اعتبار المجتمع المغربي بكامله قبيلة واحدة؟

يجيب بأن المغاربة أنفسهم يعترفون بأنهم قبائل متعددة، فالثقافة الانقسامية(3) متجذرة في المجتمع المغربي وهي نتيجة ممارسة وتاريخ طويلين، إذ تعتبر هذه الثقافة المجتمع وحدات متجاورة تتخذ أحيانا اسم جهات وأحيانا أخرى اسم قبائل يحكمها العرف وسلطة تحكيمية تأسست في إطار مجتمع قبلي ثم جاءت بعدها مؤسسة السلطان الشريف التي كان عليها ألا تنحاز لأية قبيلة ضمانا للتوازن. يبقى أن تشير في الأخير إلى تأثر غلنر بالمقاربة الخلدونية في دراسة المجتمع المغاربي، إذ ارتكز تحليله السوسيولوجي للمجتمع الإسلامي على ديالكتيك(4) المدينة والقبيلة أو بين منطق الدولة ومنطق القبيلة كما أن نموذج ابن خلدون لدورات الحكم كان باديا في دراسته، حيث تظهر في هذا النموذج السلالة الحاكمة في المدينة وهي جماعة قبلية لكنها تمدّنت وتحضرت، والقوى القبلية خارج المدينة مسلحة ومقاتلة وهي لا تخضع لسلطة السلالة الحاكمة إلا بقدر ما تكون هذه الأخيرة قوية بما فيه الكفاية لإخماد ثورة القبائل أو ثرية بما فيه الكفاية لشرائها، تتمتع هذه القبائل بحكم ذاتي من ناحية وتشكل تهديدا كامنا.

إن السلالات التي تقهر المدينة وتسيطر على ثروتها يتأتى لها ذلك بالحمية القتالية الناشئة عن أصلها البدوي وعصبية أواصرها القرابية لكن بمرور الوقت يتوطن الحكام ويعتادون مناهج

---

[1]– د. المختار الهراس ، التحليل الانقسامي للبيانات الاجتماعية في المغرب العربي، حصيلة نقدية، في: نحو علم اجتماع عبي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، فبراير 1986م، ص 272.

[2]- د.ليليا بن سالم وآخرون، مرجع سابق، ص19.

[3]- د. محمد ضريف، النسق السياسي المغربي المعاصر، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، دار البيضاء، المغرب، أبريل 1993م ، أبريل 1993م، ص57.

[4]- د. سامي زبيدة،انثروبولوجيا الإسلام، "مناقشة ونقد لأفكار أرنست غلنر"، دار الساقي، بيروت، 1997م، ط1، سلسلة بحوث اجتماعية، رقم 2، ص 6.

المدينة ونعمها وتنشأ لدى فروع قرابتهم مصالح فئوية ومزاحمة على الثروة فتفوض تضامنهم وتؤدي كلفة حاشيتهم المتسعة وترفهم إلى إثقال كاهل سكان المدن بالضرائب مما يزيد من استيائهم وإذا صادف ذلك ضعف الحكام وتنامي سلالات قبلية طامعة تعد حملات عسكرية للإحاطة بالحكام في النهاية الذين تكون قواهم خائرة فتحل محلهم لتتكرر الدورة من جديد.

وإضافة إلى غلنر اهتم آخرون بتطبيق المقاربة الانقسامية على المجتمع المغربي نذكر منهم:هارت، جاموس ريموند، دون، فينوغرادوف، أما بالنسبة للجزائر فرغم أنها كانت ميدانا أوليا مكن البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي من إرساء المقولات الانقسامية من خلال أبحاث: هانوتو ولوترنو وماسكراي وغيرهم،... إلا أن الفرضيات الانقسامية كانت أقل حضورا بسبب اختلاف السياسة الفرنسية في مواجهة القبائل بين المجتمع الجزائري والمجتمع المغربي، ففي حين أبقت فرنسا على البنيات القبلية المغربية فإنها سعت بكل ما أوتيت إلى تفكيك وتحطيم البنى الاجتماعية في الجزائر من خلال تدخلها الإداري والعسكري لأن هذه البنيات كانت تمثل حصن المقاومة والحضارة والشخصية الإسلامية ورغم ذلك فهناك بحوث غربية عنت بتحليل هياكل المجتمع الجزائري قبل الاستعمار أشهرها عمل: رونيه قاليسو الذي تتلخص أفكاره حول ما يلي:

- المجتمع الجزائري إقطاعي، طبقي.

- تتميز البنية الاجتماعية قبل الاستعمار بنمو القوى الإنتاجية.

- الإقطاع في الجزائر هو إقطاع قيادة (من القياد) عكس الإقطاع الأوربي.

اعتمد قاليسو على المفاهيم الماركسية وتعرض للنقد على يد الباحثة لوسيت فالونسي(1) Lucette Valenci، فعلى عكس ما رآه قاليسو من نمو القوى الإنتاجية فإنها رأت ركودها لغاية بداية الاستعمار وقدمت أمثلة عن تدهور القوى الإنتاجية بأدوات الاتصال والنقل، أما بالنسبة للطبقية فإنها تنعدم بالجزائر بل يمكن القول بوجود قبائل محظوظة مخزنية تستفيد من السلطة المركزية وأخرى لها أنساب شريفة تتفوق بها على الناس (إنهاالأنساب المبجلة بتعبير بيرك).

كما أن التركيبة البنيوية تتشكل من خلايا عرقية منغلقة على نفسها، تتكون كل خلية من عدة عائلات تتجمع حول جد مشترك مؤسس، أما عن الإقطاعية فإن فالنسي تنفيها عن المجتمع الجزائري بحجة ضعف الفائض المستخرج من الفلاحين وضعف الكثافة السكانية وبصورة عامة فإن كل عائلة جزائرية منطقتها الزراعية هي جزء من أرض القبيلة.

وأما في تونس فإن نفس الباحثة في دراستها حول الفلاحين التونسيين في القرنين 18 و19 اعتمدت النظرية الانقسامية كآلية تحليل في تفسيرها للمجتمع التونسي قبل الحماية حيث وصفت هذا المجتمع بالانقسامي.

- القبيلـة أعلى مستوى للتنظيم الاجتماعي فلا يُعترف للفرد بوجود إلا منصهرا داخل المجموعة القبلية، كما لا يُعترف بالعائلة النووية ككائن مستقل.

- التسلسل الدموي يعتمد على النسب الأبوي وعلى مؤسس السلالة الذي أشرف على تأسيس القبلية واستقرارها في المنطقة التي تحتلها وعلى الجيل الأول من أبنائه مع تجاهل الأجيال اللاحقة.

---

[1]- د. ســالم لبيض، من أجل مقاربة ســوســيولوجية لظاهرة القبيلة في المغرب العربي، مرجع سابق، ص 78.

- تتفرع القبيلة إلى أجزاء وظيفتها إلا بقاء وضبط العنف الجماعي نظرا لتفشي النزاعات حول الآبار والمراعي وهذا تطبيقا لمبدأ الانصهار والانشطار.

- تتمتع القبائل التونسية باستقلالية ذاتية ولا تبرز مركزية السلطة إلا عند جمع الضرائب.

- المجتمع القبلي في تونس عتيق في بنياته الاقتصادية وضعيف في مستواه التقني يتميز بتقسيم بسيط للعمل وانعدام التراتب الاجتماعي على المستوى العمودي (صراع الطبقات) تتخلل هذا المجتمع نزاعات أفقية بين قسمات متشابهة فيما بينها.

أما جون كويزونييه في أطروحته حول الاقتصاد والقرابة عام 1971م عند قبائل النصرين لاحظ أن النزاعات لا تسوّى عن طريق نظام المصاهرة حسب مبدأ الانصهار والانشطار مثلما يوجد عند النوير بل ببدائل وخيارات تعبّر عنها أطراف النزاع.

إن نمط العلاقات التي تربط القبيلة بالحكم المركزي خصوصا في ظروف العنف التي تواكب جباية الضرائب كان لها عبر مراحل التاريخ مفعول عميق على مستوى السير الداخلي للنظام القبلي، أما في ليبيا فقد سبق وأن أشرنا إلى دراسة إيفانز برتشارد لمنطقة برقة وللطريقة السنوسية.

❖ تطبيقات النظرية:

في السياسة: تُستخدم لفهم التوترات في الأنظمة الديمقراطية، خاصة في المجتمعات ذات التنوع الكبير (مثل لبنان، العراق، والهند)، حيث يكون الانقسام الإثني أو الطائفي بارزًا.

في علم الاجتماع: تُستخدم لتحليل الفجوات الطبقية وتأثيراتها على التماسك الاجتماعي.

في بناء السلام: تُسهم في تطوير استراتيجيات لمعالجة النزاعات بين المجموعات المختلفة، خاصة في مناطق النزاعات المسلحة.

نقد النظرية:

يرى البعض أنها تُفرط في التركيز على الانقسامات بدلاً من العوامل المشتركة التي توحّد المجتمعات.

قد تُستخدم لتبرير التمييز أو السياسات التي تُعزز الانقسامات بدلاً من معالجتها.

عدم قدرتها على التنبؤ بالديناميات المعقدة في المجتمعات المختلطة.